ـ ٤ ـ

كنا نسير على رسلنا في الاعقاب الموحلة للجيب ، الذي ابرز كل مقدرته اللولبية في القفز على اربع من فوق تلك الحفر كلها والاوحال الكثيرة ، التي اجبرت بعد كل تلك الاجيال الهادئة المتعاقبة من الاقدام العارية وحوافر الحمير ، ان تحمل ندبين ينزفان وحلا وصمتا ، على امتداد طولها · اطلاق النار لم يعد يسمع ، اللهم الا برهة هنا وبرهة هناك ، عرضا ، ولو انك كنت هنا وحدك ، وتوقفت عن السير ، ثم اصغيت قليلا لكنت بالتأكيد تسمع كيف كانت شفة الارض تتمصمص ، وتشرب وترضع وتلعق الماء بهدوء ، وكيف كانت بقايا احزان الخريف الجاف المروع تختفي وتتهدد باستسلام كالاغفاء اثناء الرضاعة ·

واخيرا ، وحين اعتدلت الطريق وهدأت من كل تعرجهاتها ومراوغات تبخترها ، السافرة شبرا فتحجبه شبرين بأسيجة من صبار وسنط ، واغصان مغروسة ومتداخلة في ثنايا سلك شوكي قديم صدىء ، واصبحت وبكل بساطة طريقا ترابيا يؤدي الى السهل ـ توقفت سيارة الجيب ، والمدفع الرشاش المثبت فوقها كان من المفروض ان يؤمن الطريق الممتد بطوله الى الامام ، بينما ننطلق نحن وندخل الاكواخ والباحات لتفتيشها · ونظرا لذلك ، فليس اسهل عليك من ان تتجاهله ، ببساطة ، تنكره ـ فما كان يهمني هو ان الامر قد بدأ · كنت اتوق الى ساعة تبدو لي فيها الامور على غير ما تبدو للجميع · بالنسبة لي ، يريحني ان اكون مع الجميع ، واكره ان اشعر خلاف ذلك ، ولا اريد ان اكون مميزا عن الجميع بأي شيء · ففي النهاية دائما خيبة امل كبيرة · وكل صدع تافه يتكشف ويفغر فاه ويشرع بالصراخ · امسكت نفسي وخرست ·

كان يبدو انه لم يسكن تلك الاكواخ احد منذ زمن ابعد مما يكون بالامس او أول من امس · محاصيل خوف وغلال اشاعات سوء حصدت ارتباكا في غير اوانه ، وتخبط دودة سارعت الى استباق حتفها · نركل الخوخة التي تتوسط البوابة الخشبية الكبيرة في اسوار الطين ، وندخل الباحة المربعة التي تتوسط كوخا على ضلعها من هنا وكوخا آخر على ضلعها من هناك · احيانا ، وحين كانت اليد تطال والفرصة تواتي ، بادر هؤلاء واضافوا كوخا طينيا فوق سقف بيت البئر ، ثم شذبوا كرما او كرمين واقاموا لهم عريشة ، بل واحضروا الحجارة الاسمنية ، التي ليست في حاجة الى تبييض ، وان كانت اطرافها غير متقنة الصنع كلها على الاقل ، شجيرات فلفل وباذنجان خريفية تنتنت الى الاسفل بين الاعشاب ، وتعفنت عند الصنبور ، وورود برعمت في جمهرة اعشاب دنيا توحشت وتطاولت، ومسارب مدت الى مكان داخل الكرم · ركلة اخرى واستعراض لا مبال داخل دار خلت من ساكنيها ، ومخزن تراكم الغبار فيه فوق بيوت العنكبوت الجاذبة كما لو كانت دهنية · جدران حرصوا على تزيينها بشتى الوسائل ، مسكن مبيض بالكلس واسع الافريز مدهون بالازرق والاحمر للزينة ، في اعلى الجدران اصاغر مجد معلقة ، بقايا اهتمام سقطت على الارض ، وآثار حكمة ـ نسائية ـ بنت لها ـ بينها ، وتحرص على تفاصيل كثيرة فات اوانها ، نسق كان مفهوما لشخص ما ، وفوضى وجد فيها شخص ما رجليه ويديه لراحته ؟ بقايا اوان جمعت واحضرت حسب الحاجة والمناسبة ، ترتبط بافراح واحزان خاصة جدا ، وغريب لا يفهمها ، ابلاء تتكشف عن تعودها ، انماط حياة فقدت معناها ، كد صار الى نقيضه ، بكامة كبيرة ، وممعنة حطت على الحب والضجيج ، والكد ، والآمال ، والساعات الجميلة وغير الجميلة ـ جثث لن تصار الى قبرها ·